(١٦)

عبد الله

حيا يوما فكان الحياة قبل مبناه وقبل معناه

حديث الجمعة

٢٨ جمادى الأولى ١٣٨٠ هـ - ١٨ نوفمبر ١٩٦٠ م

أقرأه وأنساه. وذكَّره فأفناه. وعبَّده فأبقاه. وجدَّده فأحياه. أحياه يوما! فأدرك الحياة. وذَكَر الحياة، وذكَّر بالحياة. وعرَّف الحياة، وأحيا بالحياة. كان الحياة فأفاض الحياة.. فماذا يعنيه - وهو الحياة - ما غير الحياة؟ ماذا يعنيه من دنا الناس أو من دنياه - إن كانت أو لم تكن له دناه -؟ ماذا يعنيه من آخرة الناس أو من أخراه - إن كانت أو لم تكن له أخراه -؟ ماذا يعنيه من خلق الناس أو مبناه؟ ماذا يعنيه من دنيا الناس أو ملهاه؟ ماذا يعنيه من جنة الناس أو نعماه؟ ماذا يعنيه من نار الناس أو مرماه؟

إنه الحياة. إنه حيا يوما كما يرضاه. ماذا يعنيه إن كانت له أرضه أو سماه، أو لم تكن له ولا لمعناه وقد حيا بمن أحياه وأحيا بمن ارتضاه؟

ماذا يعنيه إن كان نبيا قبل آدم أو نبيا بعد آدم، أو عين آدم أو آدما لآدم؟ ماذا يعنيه طريقا للحياة طالت هذه الطريق أو قصرت.. انتشرت هذه الطريق أو تضاءلت.. تأبدت هذه الطريق أو توقفت.. انتفعت النفوس بهذه الطريق أو تغافلت؟ ماذا يعنيه من ذلك كله وقد حيا يوما فكان الحياة؟ حيا يوما فكان أبد الحياة، وأزل الحياة، وسرمدي الحياة. حيا بحياة من أحياه. رضيه فارتضاه. شَرُفَه حيا فشرَّف معناه، فكان منه له عين معناه. شرَّف مجلاه طلعة للأقدس من مجلاه والأعلى من مرتقاه.

كان في ثياب الخلق وتجدد في ثياب الخلق متجردا من ثياب صنعه إلى ثياب صانعه. أيكون مرة أخرى في ثياب صنعه ويتجرد مرة أخرى إلى ثياب صانعه؟! قد يفعل وقد لا يفعل! ماذا يعنيه وماذا يهم؟ إن كان قد فعل، أو إن كان قد يفعل، أو إن كان فاعلا بالفعل؟ لقد حيا يوما فكان الحياة...

إنه الحياة. إنه حيا يوما لا يدرك مداه. إنه عبد الله. أماته فأحياه وبعثه بالحياة. بعثه بمعناه، بعثه بالحق من طلعته ومجلاه. أحياه المثل الأعلى يضربه لمن ارتضاه، فعرف فيه مولاه، فذكره في نفسه. ذكر ربه في نفسه. ذكره في حسه. ذكر ربه في إدراكه وحسه.

الإنسان هو الذكر القديم الحامل للعلمية على الموجود المطلق. وآدم هو الذكر المحدث من هذا الذكر القديم للعلمية على الذكر القديم أو الذات الأقدس.

أول كائن بشري حمل خصائص آدم من العلمية على الذكر القديم أو أول آدم عرف للبشرية حاملا معنى الإنسان الكامل من حياة البشرية القائمة على الأرض، أو أول ابن لآدم تكامل لخصائص أبيه هو الذات المحمدية بما حملت من معاني وخصائص وشرف الإنسان الآدم، ظاهرا بالآدمية باطنها الحقيقة الإنسانية في علميتها على الموجود المطلق أو الوجود السرمدي. إنه عبد الله الظاهر لعبد الله القديم. إنه عبد الله جلَّ شأنه، وعز جاره، وعَلا أمره، وعُرف خبره. قام بالله، وبلا إله إلا الله، وبالله أكبر. فمن ذا الذي يرتقي مرتقاه؟ ومن ذا الذي يشاركه في وجوده بمعناه؟

إنه لا إله إلا الله لمن طلب الله. إنه الله أكبر لمن عبد الله. إنه القريب لمن أدرك القريب، قريبا في معناه، قيوما على مبناه.

ذاك من تذكرونه ولا تعرفونه، باسم عبد الله، وباسم محمد الله، وباسم رسول الله، وباسم آدم الله، وباسم إنسان الله، ولا تشهدون فيه وجه الله، ولا تقومون به عبادا لله، وبغيره لستم عبادا لله، وبغيره لا تعبدون الله، ولكنكم في عبادة أنفسكم. تعبدون الله خيالا من وضعكم. وتؤمنون برسول الله وهما من أوهامكم. تُسوفون الله فتبعدونه عن القرب معكم. وتسوفون رسول الله فتبعدونه عن القيام بينكم. فتعمى قلوبكم، وتعمى عيونكم عن نظره منظورا لنواظركم حاضرا لقوالبكم. ما كانها ولا يكونها، إلا إذا طلبتم. فهو في غنية عنكم وعن أمثالكم. لا يأبه لكم ولا لملايينكم. إنه لا يدخل بيتا غير بيته ولا قلبا غير قلبه. فهل بايعتم الله بمبايعته على قوالبكم، وعبدتم له بيوتكم وقلوبكم حتى يرى فيكم مِلكا له يدخله لأن البيت الفارغ منه مفتقر إليه؟ إنه لا يفتقر إليكم ولكنكم تفتقرون إليه. إنه غني بنفسه وغني بربه. ولستم بأغنياء عنه أو عن ربه. إنكم الفقراء إليه وإلى ما في يده لكم.

إنه من ربه باب ربه لمن طلبه. إنه باب المعرفة لمن طرقه.. إنه سلم الحياة لمن ارتقاه. ظهر الحق به خلقا، وظهر البعيد به قربا، وظهر القوي به تواضعا في مظهر ضعف، وظهر المتكبر به مدانيا في لطف.

إن لم يكن بكم إليه غاية، فلستم له، وله إليكم غاية. أنتم الفقراء إليه وهو الفقير لربه، وأنتم المستغنون بدنياكم وهو الغني الحميد بمولاه. إنكم تذكرون محمدا مُحدثين من بعده، وهو البريء ممن أحدث بعده.. إنكم تذكرون محمدا اسما وكتابا، ولا تذكرونه لقوالبكم قلبا، ولا لحيرتكم أمرا، ولا لفقركم غنى، ولا لجهلكم معرفة، ولا لظلامكم نورا. إنكم تذكرونه في المقابر. إنكم تذكرونه في الأوراق والمحابر. إنكم تذكرونه أمام غلبة طاغوت عالمكم المكر والدساكر. إنكم لا تذكرونه عباد الرحمن يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما، فتخاطبون بجهلكم مخاصمين، وتجابون من رحمته بالسلام عليكم مجانبين، وتضمرون بين جوانحكم الكراهية والخصام قالين، وتبدون الود منافقين، الحقد في نفوسكم، والمقارنة والاستعلاء في عقولكم، والمغاضبة للحرمان، والمفاضلة بالبهتان صفتكم، تحكمون على الله وتحاكمون بجهلكم، وتعاملون رسول الله بأوهامكم.

ما ذكرتموه متوجهين، وما ذكرتموه في القربى وُدًّا ولا علمًا، ولا فضلا، ولا مائدة، ولا نورا، ولا روحا، ولا سفينة ولا معراجا، ولا بابا. ولكنكم تذكرونه رياء ونفاقا. تلوكون اسمه بألسنتكم وألسنتكم تتأذى من فعلكم وطويتكم، وتود لو أن تسكت عن النطق باسمه من لغوكم لما تشهد من رياء قلوبكم، ومن خداع عقولكم، ومن التواء نفوسكم.

أالله تذكرون وأنتم مظاهروه! ورسول الله تذكرون باسم الصلاة وأنتم في صلاتكم قالوه؟

إذا لم يكن رسول الله قوام الحياة وقيامها فما ذكر، وما وُصل، لا يُدرك إلا بموت النفس وهدمها، فيُبعث في النفس عنوانا له، ولا عنوان لها، وقياما له ولا قيام لها، حياة له ولا حياة لها، وجودا له ولا وجود لها. النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم. آمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته. لا يؤمن أحدكم حتى يكون أحب لديه من ماله وولده ونفسه التي بين جنبيه.

من هو هذا الذي به يتم الإيمان ويتواجد الإنسان؟ أغيب هو عن العيان؟ أغيب هو بين هذه العوالم من أوادم الإنسان؟ إن كان غيبا فهو الله في غيبه. وإن كان حاضرا فهو الله في حاضره. وإن كان قريبا فهو الله في قربه. وإن كان بعيدا فهو الله في بعده.

إنه عبد الله الذي به يَعرف سيده ومولاه والذي بدونه لا يُدرك الله، ولا يعرف الله، ولا يُعبد الله، لا ولا يوجد الله عند واجده. فالله في عظمته ووجوده في وجود عبده. وظهوره في ظهور عبده. وقربه في قرب عبده. وإن الذي حال بينكم وبين عبده أن تكونوه أنكم بخيالكم تخيلتم أنكم لله عباد.

سبحان الله! أمثلكم لله عباد؟ إنه وصفكم بذلك إكراما لعبده. المتواجد بكم. المتواجدين فيه. فإن كنتموه فعبده أنتم، ولا تعدد للعبد عنده. كل من في السموات والأرض يأتيه عبدا واحدا. أما ما فيها إن بقي فيهما حي وللحياة مدرك فهو منه، وهو هو، وهو عبده.

أمتابعة لرسول الله تزعمون وأنتم بأقدامكم رأسه تدوسون ولا تسجدون فبها تستحيون؟ إنه سر الحياة في الأرض التي ولدتكم، والتي رحمة من الله به أقلتكم، والتي بقدرة الله ويدا له أمسكتكم.. وإلا ففي الفضاء تناثرتم فما تواجدتم.

إن الأرض التي تدوسونها بأقدامكم وُلج فيها نور الله يوم دخلها رسول الله. كانت ميتا فأحياها. وكانت ظلاما فأضاءها. وكانت خلوا من عوالم الحياة فملأها بعوالم الحياة. كانته فكانها وعرفته فعرفها، وشرفته فشرفها.

يوم تنشق عنه عيونا تملأ الأرض ريا، وتصير الكافر وليا. يوم تنشق عنه فتبدل الأرض غير الأرض، وتنشق السموات بانشقاق الأرض مبدلة عن ثمار شجرة الجنس، تنشق عن كلمات الله المرفوعة من أقباس نوره أرواح الحياة إلى بيوت موضوعة يوم لا وزر، يوم يجتمع الشمس والقمر. يوم يظهر السراج المنير للجنس بأقماره وليالي الجنس على أرض شجرة الجنس. يوم تتخلى معاني الإنسان عن أوزارها من أثقال الأرض وتخرج إلى بحار الحياة عارية مسفرة. {علمت نفس ما قدمت وأخرت}[1]. علمت نفس ما ارتقت. علمت نفس ما تواضعت. علمت نفس ما رُفعت، وعلمت نفس ما وُضعت. وأخذ الناس منازلهم في وجود الناس، فكان محمد فيهم للحق عنوانا، وانقطع كل نسب وحسب وسبب وصهر، إلا نسبه وحسبه وسببه وصهره. وكان نسبه حسن الخلق. وكان حسبه تقوى الله. وكان سببه الراحمون يرحمهم الرحمن. وكان صهره ارحموا من في الأرض يرحكم من في السماء.

كان هو الحياة ونبعها. وكان هو الدائرة ومركزها. وكان هو الكرسي ومستويه. وكان هو العرش وما يحتويه. كان كل شيء للإنسان بعبوديته للرحمن. صفه بما شئت، واعرفه كما شئت، واعتقده كيفما شئت، إلا أن تقول إنه لا رب له. قل إنه لك رب ولكن له رب. قل إنه لك إله ولكن عليه إله. قل إنه فوقك عبد لله ولكن فوقه عبد لله. قل إنه كون ولكن قبله كون. قل إنه وجود. قل إنه كل شيء ولكن قبله من هو له كل شيء.

به يعرف ربه، ويدرك وصفه، وينال علمه، ويقام قيامه، وتدرك وحدانيته. إنه عبد الله الذي حيا يوما. لا تعرفه ولا تستطيع معرفته، ولا تقدره ولا تستطيع تقديره. كما أنه هو لا يعرفه ولا يستطيع معرفته، ولا يقدره ولا يستطيع تقديره. ألم يقل لنا (ما عرفني غير ربي)[2]؟ ما عرفه غير ربه حتى

ولا نفسه. فما عرف نفسه وما أحاط بنفسه، وما قَدَر نفسه وما أدرك نفسه. عجز عن ذلك كله في أمر نفسه، وبعجزه في فهم نفسه استطاع أن يعرف ربه - وما زال - في عجزه عن معرفة ربه بعجزه عن معرفة نفسه طالبا المزيد من المعرفة عن نفسه ليزداد معرفة عن ربه في المزيد من إدراك عجزه.

على هذا قامت رسالته، وبه قامت ملته، وبه شَرُفت ذاته ونفسه، وكونه، وعقله، ومعناه، وعبوديته. به استقامت طريقه. وبه حيا صِدِّيقه. وبه تابع فاروقه. وبه سما ودانى معناه.

إنه عبد الله. هلا عبَّدنا أنفسنا لله في تعبيدها له؟ هلا شرَّفنا أنفسنا بالله في تشريفها به؟ هلا آمنا في أنفسنا بالله بإيماننا به في قيامنا؟ وطلبناه لنا في قيامنا ووجودنا؟

إن رسالة الله من قبله - إن كان لرسالته قبل- من بدء الجنس في شقيها من الحكمة والنبوة -إن كان للجنس بدء أو قبل - إنما هي في تجول نفس الإنسان لطلب معرفة الخالق، في طلب معرفة الحق، أو الحق الخالق المبدع.

أما الرسالة من بعد هيكله الرسولي وقد تمت رسالته عن التعريف بالخالق، وكشف سبيل البحث عن معرفته والاجتماع عليه، فقد بدأت بالقيام بمحمد عبده وجماع رسالته. وبقيت رسالة الله عن التعريف بعبده، والجمع عليه. بقيت رسالة التعريف عن معاني العبودية في التعريف عن معاني العبد له، يقوم بشرف الوحدانية به. وهذا ما عناه عبده يوم قال للناس (خلَّفت الله عليكم)[٣]، وهذا ما عناه كتابه وهو يقول: هذا خاتم النبيين، وهذا أول العابدين. هذا أول بيت وضع للناس مظهرا لبيت رفع من الناس.

ولن يعرف من الله ولن يظهر من الله إلا المثل الأعلى في بيت يذكر فيه اسمه، سواء في الأرض أو في السماء، وما المثل الأعلى في السموات أو في الأرض إلا عباد له يدبون في السموات كما يدبون في الأرض، وإنه على جمعهم إذ يشاء قدير، وإنه جامعهم على دوام ومظهر جمعهم يوم تشقق السموات والأرض عنهم على أمر معلوم.

وإنهم على قديم عبده اجتمعوا، وبه اجتمعوا، وعليه اجتمعوا، وفيه اجتمعوا. وكانوا للناس ملأ الأرض، من المثل العليا من عباد الرحمن يتواجدون عليها آدما بعد آدم، وإنسانا بعد إنسان، وشهيدا بعد شهيد، وإماما بعد إمام، حتى استكمل الجمع أمره، وبلغ محدث الذكر بمحمد رشده على مثال من قديمه. ما أحدث محدثه بالتخلق بأخلاق ربه إلا آدم قيام لباطن بآدم في إنسان الله. أوجده قديمه لنفسه على صورته.. في الحي القيوم.. في اللانهائي الموجود.. في الصمد الخالق.. في الواحد الأحد، في

الفرد الصمد الذي لا يعرف إلا بقيام وحدانيته عند موحده، والذي هو عين عارفه في عين معروفه. هو العارف والمعروف في إنسان عبده، وإنسان رحمته، وإنسان ذكره.

إن الصلاة كصلة مقامة لذكره، من ذكر محدث بأمره لذكر قديم في سرمدي قيامه.. رفيقا أدنى لرفيق أعلى.. ظاهرا لباطن. إنهم عباد مكرمون دبوا على الأرض، أو دبوا على السماء.

هذا دين محمد وهذا ما جاء به محمد، فهل بحث الناس بينهم على قبلة الرشاد لهم أو على حوض الحياة يردونه بينهم؟ هل بحث الناس عن محمد فيهم، وفي أنفسهم، وفي قيامهم، وفي مجتمعهم؟ هل بحثوا عن الله ومثله العليا بينهم وبين جوانحهم في مرضي صفاتهم؟ هل بحثوا عن الشيطان في أنفسهم، في مرذول قيامهم ومجفو صفاتهم؟ إنهم يبحثون عن الله خارجهم فيباعدوه بوهم ذكره وبوهم مقاربته. إنهم يبحثون عن رسول الله بعيدا عنهم فيباعدوه. إنهم يبحثون عن الحياة وعن الجنة مسوفة بعيدا عن قيامهم، والحياة في قيامهم أقرب من حبل الوريد، والجنة هم في قيامها،عرضها السموات والأرض مُعدة للمتقين لم تخرج أرضهم منها، ويبحثون عن النار بعيدة عن تواجدهم وهي لهم مبرزة لمن ألقى السمع لناقل وهو شهيد بناظر. هم اليوم واردوها تحت شمسها وزمهريرها لمن لم يتابع مقولة بوهم ولكن يتابع منظورا بفهم.

أين هو الدين عند أدعيائه؟ أين هو الإسلام عند من يدعونه باسم الغيورين وهم عين قيام ووصف أعدائه؟ إن الدين والإسلام يتجدد عند الإنسان المؤمن المسلم، عند كل لمحة، وفي كل يوم، وفي كل مجال، وفي كل فرصة، وفي كل حياة. إن المؤمن لا يتوقف عن الترقي، وعن التطور، وعن المزيد، وعن النمو، وعن الحياة، وعن التواجد. أين هذا كله يا من يدعون الإسلام؟! أو ينسبون إليه!

هذا هو دين الإسلام. لا جنة فيه لخيال، ولا نار فيه لوهم، ولا حساب عنده في الانتظار، ولا ربا في قطيعة، ولا رسولا في بعد عن العمل والاتصال.

إنكم تسمعون، وإنكم تشهدون. وإن هذه فرصتكم فصدقوا لما تسمعونه. فما قال الرسول قولا إلا بعد أن قام فيه. ولن يقول صادق مقالة قبل أن يقوم فيها.

افهموا القاعدة تتعلموا الدرس. إن الذي قال لكم إن الله أقرب إليكم من حبل الوريد.. إن الذي حمل لكم ما زال عبدي يتقرب الي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت يده ورجله وعينه إذا أحببته كنته...

ما قال مقالته لكم إلا بعد أن تحققت له. وما عرفها إلا من تحققها له. حاشا لله! أن يقول الرسول مقالة عن وهم أو هو بها حالم أو واهم! فما كان إلا إياه وجها ويدا لكم. إنه يقول لكم في كتابه عن

لسان ربه إن الذين آمنوا بما أنزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم. فما كان محمد إلا الحق من ربهم. ما كان إلا وجه ربهم. ما كان إلا وجهه وطلعته. ما كان إلا نوره ورحمته. ما كان إلا روحه وظهوره وطلعته. ما كان إلا قرب وجوده وسر ذاته.

هل أدركتم شيئا من ذلك؟ إنكم تتكلمون فقط ألف وأربعمائة سنة تتكلمون فقط ولا تدركون. وإذا ظهر بينكم مُدرك تَقْلُون، وتخاصمون، وتباعدون، حتى إذا غاب عنكم كنتم تراب قبره تُقبلون، وأعتاب قبلته تسجدون. والله خلق لكم من بينكم من مثلكم من تقدرون، فلا الربوبية في أنفسكم تذكرون، ولا بالله تقومون، وأربابا منكم من دونه تتخذون ولا تستحيون. فإذا قيل لكم كونوا ربانيين وليتم مدبرين. وساحة الله، ورحمة الله، وعناية الله، لا يساق الناس إليها، ولا تسقى كدواء - النفس له كارهة - ولكنها توهب كجزاء - النفس له طالبة، وبه راضية، وإليه ساعية.

إن الله لا يدخل الناس إلى ساحته كرها، {لا إكراه في الدين تبين الرشد من الغي}[٤] ولكن الناس يطلبون أن يكونوا المكرهين لا الأحرار العابدين. فلا حول ولا قوة إلا بالله رب العالمين. اللهم اغفر لنا وللناس أجمعين.

اللهم بخُلقك الكريم نخلِقنا. وبفطرتك فاصبغنا. وبأمرك أقمنا. وفي رحمتك أدخلنا. اللهم إنا بك آمنا، وبعبدك قمنا، وفي دنيانا على ضيق بها أقمنا، وإلى آخرتنا فيك استشرفنا، وحريتنا بك طلبنا، وعتق رقابنا سألنا، وعتيق أمرك له أنفسنا هيأنا، فبفضلك له عبدنا، وبه فاصبغنا، وبالعبودية لك حققنا.

اللهم إنا علمنا أنه لا مكان لك، فأنت المكان وأنت المحيط بالمكان. اللهم منك فينا فأشهدنا، وفضلا منك فمكنا، وقدرة بها نقدر على خَلق أنفسنا قدِّرنا، والطريق المستقيم إليك أسلكنا، وأخذًا بنواصينا في الطريق قومنا، وبالحق قربنا، ومن كل كائن لك حققنا، وفي معراج رُقِينا لفضلك فاعرج بنا، وفيك طورنا، في الأرض أقمنا، أو إلى السماء صَعِّدنا، فنحن عبادك فبَمنِّك عبِّدنا، وزدنا فيك عبودية وعبودية.. وعبودية.. ومن عبوديتك لا تحرمنا ما أحييت وما أبقيت وما بك بقينا.. لا إله إلا أنت ولا معبود سواك.

(لن يكون سلام في عالمكم قبل أن تندمج ألوان البشر سويا، وقبل أن يتعلم الناس ألا ينظروا إلى الجلود وإنما إلى النفوس التي وراءها)

(إن قوة الروح من مصدر الحياة في انسيابها إلى الكائنات البشرية تتجاهل كل التمييزات الأرضية، ولا تهتم بطبقة، ولا بلقب أو بدرجة في مجتمع، ولا تهتم بلون لشعب أو تمييز لجنس، أو سلطان لقوم أو دولة. إنها تتجه فقط لهؤلاء الذين يستجيبون لنداء الحق، أينما كانوا أو إلى من كانوا، فتملؤهم بقوتها

آتية من مصدر كل صدق، فتضيء عقولهم، وتتحرك نفوسهم، ويصبحون من العاملين في الأيكة العظيمة للروح الأعظم).

(إن الحب هو العامل الأول لتحقيق ذلك. والحب الصادق هو الذي يخلص من الخوف. ولكن الناس يبدأون وفي قلوبهم وجل. وثقتهم بأنفسهم مزعزعة إذ يخشون أن لا يحصلوا على نتائج لمجاهدتهم. والخوف عنصر مفسد لعملهم إذ يفسد عليهم اتحاد الذبذبة مع باطنهم من الأرواح المرشدة لهم والعاملة معهم. اعرفوا قبل كل شيء عن ملكوت الله، وعن عدالته، وعن ضرورة المعرفة بينكم، وكل المواهب سوف تنهال عليكم)

(لقد جاءكم العلم منذ سنين كثيرة عن طريق إنسان عرف القانون، بين لكم أنه إذا ما جربه مجرب جاءت النتائج دائما وحتما، وأنكم إذا ما سمحتم للقانون أن يعمل، فعلى النتائج أن تأتي) ... من هدي السيد الروح المرشد (سلفربرش)

وإنه يقصد بالإنسان الذي عرف القانون وعرفه رسول الفطرة وعبدها من رددنا له اسما (محمدا عبد الله ورسوله).

مصادر التوثيق والتحقيق

١ سورة الانفطار - ٥

٢ حديث شريف ذكره بعض المتصوفة ومنهم الشيخ الكّاني بلفظ "ما عرفني حقيقة إلا ربي."

٣ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.

٤ سورة البقرة - ٢٥٦